اليازجي والامثال

في مجمع البحرين

بقلم ظافر القاسمي

المَثَل جملة قصيرة ، قد لا تعدو كلمتين ، قيلت في موقف حاسم ، من مواقف الحرب أو السلم ، أو الاجتماع أو السياسة أو العلم ، أو غير ذلك من شؤون الحياة ، فأعجب الناس ، إما بإحكامها في موضعها ، وإما ببلاغتها ، وإما بغرابتها ، وإما بقوتها في التعبير وأداء المعنى ، وإما بغير ذلك ، وإما بكل هذه الصفات أو ببعضها ، فسارت على ألسنتهم ، واستشهدوا بها في أقوالهم وكتاباتهم . ومن هنا جاء التعبير الشائع المعروف : (المثل السائر) .

فالمثل اذن تعبير عن حال من حالات الحياة ، وان كان الغالب على منشئه « الفردية » فقد ينطلق به لسان اعرابي ، أو ملك أو سوقة ، في حادث من الحوادث ، قد يكون بين اثنين ، أو في حلقة من حلقات الجماعة ، فلا يلبث أن يتناقله الناس ، فيصبح بذلك ملكاً للمجتمع كله ، يستشهد به الأفراد في كلامهم أو في كتبهم ، فاذا ما أحسن استعماله في موضعه ، كان زينة يتحلى بها القول ، وتتجمل بها الكتابة .

قال المبرد : « المثل مأخوذ من المثال ، وهو قول سائر يُشَبَّه به حالُ الثاني بالأول »[1] .

وقال ابن البَيْطَار : « المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ، ويوافق معناه ذلك اللفظ الذي شبهه بالمثال »[2] .

وقال غيرهما : « سُمِّيَت الحِكَمُ القائم صدقها في العقول أمثالًا ، لانتصاب صورها في العقول ، مشتقة من المثول الذي هو الانتصاب »[3] .

(١) مجمع الامثال للميداني ص٥ ـ المطبعة الخيرية ـ ١٣١٠هـ.
(٢ و٣) المصدر السابق.

وقال ابراهيم النَّظَّام : « يجتمع في المثل أربعةٌ لا تجتمع في غيره من الكلام : ايجاز اللفظ ، واصابةُ المعنى ، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة »[1] .

وقال ابن المقفع : « اذا جعل الكلام مثلًا ، كان أوضح للنطق ، وآنقَ للسمع ، وأوسع لشعوب الحديث »[2] .

وأشاد أبو هلال العسكري ، وهو من أعلام القرن الرابع الهجري ، في مقدمة كتابه (جمهرة الأمثال) بالمثل وأثره ، فقال :

« رأيت حاجة الشريف الى آداب اللسان ، بعد سلامته من اللحن ، كحاجته الى الشاهد والمثل ، والشذرة والبدرة ، والكلمة السائرة ، فان ذلك يزيد المنطق تفخيماً ، ويكسبه قبولًا ، ويجعل له قدراً في النفوس ، وحلاوة في الصدور ، ويدعو القلوب الى وعيه ، ويبعثها على حفظه ... ولما عرفت العرب أن الأمثال تتصرف في أكثر وجوه الكلام ، وتدخل في جل أساليب القول ، اخرجوها في اوقاتها من الالفاظ ، ليخف استعمالها ، ويسهل تداولها ، فهي من أجلّ الكلام وأنبله ، وأشرفه وأفضله ، لقلة ألفاظها ، وكثرة معانيها ، ويسير مؤنتها على المتكلم ، مع كثير عنايتها ، وجسيم عائدتها . ومن عجائبها أنها مع إعجازها[3] تعمل عمل الأطناب ، ولها روعة اذا برزت في أثناء الخطاب . والحفظُ موكلٌ بما راع من اللفظ ، وبدر من المعنى . والأمثال نوع من العلم ، منفرد بنفسه ، لا يقدر على التصرف فيه الا من اجتهد في طلبه ، حتى أحكمه ، وبالغ في التماسه حتى أتقنه ... وانما يُحتاج في معرفتها ، مع العلم بالغريب ، الى الوقوف على أصولها ، والاحاطة بأحاديثها ، ويكمل لذلك من اجتهد في الرواية ، وتقدم في الدراية ... وقد عُلم أن كل من لم يُعْنَ بها من الأدباء ، عناية تبلغه أقصى غايتها ، وأبعد نهايتها ، كان منقوصاً في الأدب ، غير تام الآلة فيه ، ولا موفور الحظ منه ... »[4] .

وقد يكون المثل واضح المعنى ، سهل الألفاظ ، بيّن الدلالة ، فلا يحتاج

(١ و٢) المصدر السابق .

(٣) كذا في الاصل ولعلها : ايجازها .

(٤) هامش ص٣ ــ ٤ من مجمع الامثال المشار اليه آنفاً .

فهمه الى أي ايضاح . وقد يكون مفهوماً من القرائن ، وان كان غير واضح الالفاظ . وقد يكون غريباً ، فلا يمكن أن يستدل على معناه ، الا بالرجوع الى كتب الأمثال ، ان كان من الأمثال الفصيحة ، أو الى الحُفّاظ من الناس اذا كان من الأمثال العامية .

ذلك أن المجتمعات كافة ، على اختلاف أمصارها وأعصارها ، قد عرفت « المثل » وعُنيت به . ولغتنا العربية ، مـا زالت حتى اليوم لغتين ، فصحى وعامية ، فكما عرف المجتمع العربي المَثَلَ الفصيح ، المدوّن في الكتب ، عرف كذلك الأمثال العامية ، التي أملتها تجارب الحياة ، فأضحت جزءا منها . فأما الفصيح ، فثابت لا يتغير ، يعرفه المثقفون في البلاد العربية كلها دون استثناء ، ومن جهله أمكنه التعرف عليه . وأما العامي فقـد يختلف بين بلد وآخر ، وفقاً للعادات والمصطلحات والأعراف والتقاليد .

لقد عرفت قبل أكثر من ثلاث وثلاثين سنة مستشرقاً فرنسياً سكن دمشق فترة من الزمن ، اسمه (سوسي Saussey) ، كان يهتم بالامثال العامية الشامية ، وكنت أجتمع اليه الساعات الطوال ، وهو يستوضح ، ويدوّن ، ويحاول أن يفهم المستعصي من الالفاظ العامية الدارجة ، ومعاني الامثال ، ومواضع التمثل بها[1] .

كذلك سمعت ان الصديق الاستاذ عبد الجبار جومرد ، وهو من أدباء العراق المعروفين ، ومحبّاتها النابهين ، قد اهتم مؤخرًا بالأمثال العامية السائرة في الموصل بلده . وما أدري اذا كان قد أنجز عمله هذا ؟ وان كان قد طبعه أم لا .

وقد عُني العرب بالأمثال ، فألفوا لها الكتب الخاصة ، ومن أشهرها مجمع الامثال للميداني . وهو مطبوع منشور ، ونظم مضامينه شعرًا أحد أدباء بيروت في القرن الماضي ، وطبع في المطبعة الكاثوليكية .

قال الميداني ، وهو من أعلام القرن السادس الهجري ، في مقدمـة كتابه مجمع الامثال : « طالعت من كتب الأئمة الاعلام ، ما امتدّ في تقصّيه نَفَس

(١) اتصلت بالمعهد الفرنسي بدمشق مستوضحاً عن آثار هذا الرجل ، في موضوع الامثال العامية الدمشقية ، فعلمت أنه ليس هنالك أثر منها ، ولعلها ضاعت في الحادث الذي ألمّ به ، وأدى الى وفاته عام ١٩٣٥ .

الايام ، مثل كتاب أبي عبيدة ، وأبي عبيد ، والأصمعي ، وأبي زيد ، وأبي عمرو ، وأبي فيد . ونظرت فيما جمعه المفضل بن محمد ، والمفضل بن سلمة ، حتى تصفحت أكثر من خمسين كتاباً . . . ».

ثم أضاف : « وسميت الكتاب مجمع الامثال ، لاحتوائه على عظيم ما ورد منها ، وهي ستة آلاف مثل ونيف ، والله أعلم بما بقي منها ، فان انفاس الناس لا يأتي عليها الحصر ، ولا تنفدُ حتى يَنفَدَ العصر . . . »[1] .

وقد اطلعت على كتاب خطي في الامثال ، في مكتبة الشيخ جميل الشطي[2] ، رحمه الله ، ألفه جار الله الزمخشري ، وسماه (المستقصى في أمثال العرب) ، وقد أعلمني أمين دار الكتب الظاهرية ، الدكتور محمد عزة حسن ، أنه لم يطبع حتى اليوم ، لا في الشرق ، ولا في الغرب ، وان نسخه الخطية متعددة .

ولست بصدد تتبع الكتب في الامثال ، وانما أردت الاشارة والتمثيل ليس غير .

وكما كان الشيخ ناصيف اليازجي إماماً في حسن الاقتباس من القرآن الكريم . كذلك كان إماماً في حسن « التمثل » . وليس غريباً أن يُحسن اليازجي الاقتباس من كتاب الله ، لانه قد وعته الصدور ، كما وعته السطور ، منذ أربعة عشر قرناً حتى اليوم ، واتفق الناس في مشارق الارض ومغاربها على تصه الموحد ، وقد كان المسلمون وما زالوا يتعبدون بآياته خمس مرات في اليوم الواحد على الاقل . وانما الغريب أن يغوص اليازجي على الامثال ، في زمان لم تكن فيه المطبعة العربية قد قدمت الى القراء هذا الفيض من الكتب . فقد

(١) ص ٤ — المطبعة الخيرية — ١٣١٠هـ.

(٢) جميل الشطي : مفتي الحنابلة بدمشق . كان فقيهاً ، فرضياً — كما كان أديباً ، شاعراً وكاتباً ، أطلعني على مراسلات بينه وبين الاستاذ الرئيس محمد كرد علي ، فيها شيء من العتاب والاخوانيات ، وما زلت اذكر انها من اعلى طبقات البلاغة ، عزف فيها عن السجع ، الذي التزمه اكثر حياته ، ومال فيها الى الترسّل . حضرت مجالسه سنين طويلة ، وانتفعت من علمه وفضله . تفرد بين أقرانه بالحس المرهف الحاد ، كما كان أذيّاً ، سريع الغضب والتأذي . وقد اعلمني الدكتور محمد عزة حسن انه اوصى بمكتبته لدار الكتب الظاهرية ، وتلك من حسناته رحمه الله .

أنجز اليازجي كتابه (مجمع البحرين) في شهر نيسان سنة ١٨٥٥ الف وثماني مئة وخمس وخمسين . ولم يكن ، في حدود علمي ، قد طبع حتى هذا التاريخ أيّ كتاب من كتب الامثال . فاذا ظهر اليازجي على شيء منها ، فهو مخطوط ، لا مطبوع . واذا كنا نجهل الكتب التي عرفها اليازجي ، لانه لم يحدثنا عنها ، ولا عرّفنا أحد من معاصريه عنها شيئاً ، فاننا نستطيع أن نستنتج من كتابه (مجمع البحرين) أنه قد اطلع على بعض كتب الأمثال ، فأتقن دراستها ، وأحكم معرفة أصلها ، وحفظ نصوصها ، وأرسلها في كتابه ، ارسال الرجل المطبوع الذي رزق القدرة على الفهم والحفظ .

ويخيّل اليّ ان اليازجي لم يكتف بكتب الامثال ، وانما عكف على أمهات معاجم اللغة العربية ، مخطوطة أو مطبوعة ، كاللسان والتاج والصحاح وغيرها ، فتتبع فيها ، في جملة ما تتبع ، أمثال العرب ، وقصصهم في منشئها .

أضف الى ذلك أن كثيراً من كتب الادب المتداولة ، قد ضمت بين دفتيها كثيراً من الامثال ، وتفسيراً لمعانيها ، وايضاحاً لأصلها . ولست أشك في أن اليازجي قد استفاد ايضاً من هذا المصدر للأمثال ، بعد طول مصاحبته لهذه الكتب ، والتنقيب بين سطورها ، وحل طلاسمها ، وتقويم ما حرّف النُّساخ من ألفاظها ، واحتمال أذى غبار القرون الذي استقر بين أوراقها .

وانما أردت أن أنبه أبناءنا من ناشئة هذا الجيل ، الى ما صنع الروّاد الأول ، في العصور المتأخرة ، ولا سيما في لبنان ، وكم تحملوا من مشاق ، وكابدوا من ارهاق ، واستطابوا النصب ، في سبيل لغة العرب . واليوم نرى آلاف الكتب المطبوعة مبثوثة على قوارع الطرق ، كما نرى المكتبات العامة ، تضم كل فريد ونفيس ، مما لا نجده لدى الوراقين ، وهي مفتحة الابواب للخاص والعام ، فأضحى بذلك العلم ميسوراً ، والسبيل الى الثقافة منثوراً ، فما أحرى أبناءنا أن ينتفعوا بهذه الكنوز التي أضحت سهلة المنال ، قريبة المأخذ ، واضحة النهج ، مَشكُولَةَ المُشكِل ، مفسَّرة المُنغَلق ، مشرقة الحرف ، أنيقة الورق ، جميلة التقديم .

ولست لأستقصي ما في (مجمع البحرين) من أمثال العرب ، فلا تكاد تخلو مقامة من مثل أو امثال ، وانما أمثل على استشهاده بالأمثال ، لنرى كيف

أوتي هذا العبقري القدرة العجيبة ، على التمثل بأمثال العرب . قال :

— فابتدم الشيخ من فوره ، وقال : جَدَحَ جُرَيْنٌ من سَويق غيره — ص ١٣ — مثل يضرب لمن يجود من مال غيره .

— قال : قد رأيت ما لا يرى ، فَعِنْدَ الصَّباحِ يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَى —ص ١٣ — مثل يضرب لرجاء الخير بعد المشقة .

— فصرت أجرَعَ من ذُؤالة ، وأعطشَ من ثُعالة — ص١٧ — ذؤالة : علم للذئب ، وهو مثل في الجوع ، وثعالة : علم للثعلب ، وهو مثل في العطش .

— قيل : قد جاء الطبيب ، فقلت : قَطَعَتْ جَهِيزَةُ قَوْلَ كُلِّ خَطيب — ص ٢٥ — .

— فرأيت الأديب عند أمته ، أهوَنَ من قَيسٍ على عمته — ص٢٨ — قيس : رجل من الكوفة ، زار عمته في الشتاء ، فأدخلت الكلب الى البيت ، وتركت الرجل خارجاً فمات من البرد .

— من أراد أن يعرف جُهَيْنَة ، أو شاعر مَزَيْنَة ، فليحضر ليسمع ويرى ، فان كُلَّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الفَرَا ، فعمد اليه رجل وقال : أَطْرِقْ كَرَى ، ان النَّمامَةَ في القُرى — ص ٣٥ —

— قالوا : كلاهما وتَمْرًا ، فقد فرضنا لكل بيت صلة أخرى ، على أن تكتبها سطرًا فسطرا . ففعل وقال : الشَّرْطُ أَمْلَكْ ، عَلَيْكَ أَمْ لَكْ — ص ٣٩ —

— فقال يا مولاي : لا تُطْعِمِ العَبْدَ الكُرَاع ، فَيَطْمَعَ في الذِّراع —ص٤٣—

— فندم القاضي على قضائه الخاسر ، وقال : هذا جَزَاءُ مُحْسِنٍ أَمِرْ عَامِرِ — ص ٤٤ — مثل يضرب على الغدر وقلة الوفاء .

— فعاد الى المقام ، وقال : صَبْرًا على مَجَامِرِ الكِرَام — ص ٤٨ — مثل يضرب للقادر في انتقام الكرام منه .

— قلت : قد هجمت بي على المجلس ، رقعةٌ كَصَحِيفَةِ المُتَلَمِّس — ص٦٨—

— قال : يا بني ! أَخْلَة ، تَدْعُو إلى السَّلَة — ص ٨٤ — معناه : الفقر يدعو الى السرقة .

قال : شَرٌّ أَهَرَّ ذا نَاب ، فمن هذا الظالم الذي لا يعرف السُّنَّة والكتاب — ص ٩٩ —

— صرت أَهْزَلَ مِنَ الجَوْزَل ، وأَجْزَعَ منْ كَلْبَةِ حَوْمَل — ص ١٠٠ —

الجوزل : فرخ الحمام قبل أن ينبت ريشه ، وحومل امرأة أجاعت كلبتها فماتت .

— فلما انتهى الى هذا البيت أنَّ كالمريض ، وقال : حَالَ الجَرِيضُ دُونَ القَرِيض — ص ٢٢٥ —

— يا ابن شارب الفلق ! أَتَجْزِي جَزاء سِنِمَّار ، ولا تخاف من العار ؟ — ص ١٦٦ —

— وقال : الله أكبر ، ان البُغَاثَ قد اسْتَنْسَر — ص ١٧٠ —

— فأخذتني الحمية هنالك ، وقلت : مَاء ولا كَصَدَاء ، وفَتًى ولا كَمَالك — ص ٢٢٦ —

— فناولني ما شاء ، وقال : أَتْبِعِ الدَّلْوَ الرِّشَاء — ص ٢٧٠ —

وبعد فهذه نماذج من احسان اليازجي في التمثل بالامثال ، لم أفكر في انتقائها ، ولا اجتهدت في اصطفائها ، وانما فتحت بعض صفحات نسختي من (مجمع البحرين) ، فوجدت الاشارة الى أمثال العرب على هامشها ، فنقلتها اليك .

ولقد مر بك في مطلع هذا البحث أقوال بعض الأئمة في الامثال وخطرها ، كالمبرد والنظام وابن للقفع وابن السكيت وغيرهم . ولقد كانت براعة اليازجي موافقة لآرائهم ، ومصدقة لاحكامهم . وكما رجوتك في بحثي (اليازجي والقرآن في مجمع البحرين) أن تعود الى الكتاب لترى احسان اليازجي في الاقتباس من القرآن الكريم ، أؤكد لك رجائي في أن تعود اليه لترى عبقريته في الاستشهاد بالامثال .

دمشق في الثامن من حزيران ١٩٦٣

ظافر القاسمي
نقيب المحامين